الفصل السادس

المعارك العسكرية حول القدس

منى محروس

يعود تاريخ القدس إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، هُدِمَت، وأُعيد بناؤها ١٨ مرة، تهافت عليها المستعمرون، من شتى بقاع الأرض، محاولين تغيير صبغتها العربية، بالرغم من كل مزاعم هؤلاء بقيت، وستبقى عربية.

لقد سكن القدس **اليبوسيون**، إحدى القبائل الكنعانية، من العرب الأوائل، الذين نزحوا، من الجزيرة العربية، مع من نزح، من القبائل الكنعانية، حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م، واختاروا التلال المشرفة على المدينة القديمة، وبنوا قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية للمدينة، وسميت حصن يبوس، وكان أقدم بناء في مدينة القدس، وأُقيمت حوله الأسوار وبرج عال في أحد أطرافها، للسيطرة على المنطقة المحيطة بيبوس، للدفاع عنها، وحمايتها من غارات العبرانيين، والمصريين، كما أنشأ السلوقيون، في موضع حصن يبوس، قلعة منيعة، عرفت باسم عكرا، أو أكرا[١].

شن نُبوخَذ نَصَّر، الكلداني، هجومًا على فلسطين، عام ٥٩٧ ق .م، واستولى على القدس، والتي كانت عاصمة يهوذا، آنذاك، وأقام في القدس مُلكًا، بعد تمرد اليهود قام نبوخذ نَصَّر بتدميرها عام ٥٨٦ ق.م، كما غزا الفرس فلسطين، عام ٥٣٩ ق.م، في عهدهم عادت بقايا قبيلة «يهوذا»، من بقايا البابليين في القدس.

أما في **العهد اليوناني** فقد قهر الإسكندر المقدوني الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد، واستولى على القدس، وضمها إلى الإمبراطورية اليونانية عام ٣٣٢ ق.م[٢]. عندما وصل الإسكندر إلى القدس، وجد أحبار اليهود في انتظاره مرحبين، وأعلنوا مولد يهودي في تلك السنة، يسمى الإسكندر الأكبر، الأمر الذي لم يدم طويلًا بين اليونانيين واليهود، وجاء أحد خلفاء الإسكندر، وأذل اليهود، وظل الأمر هكذا، حتى دخل الرومان القدس سنه ٦٣ ق.م[٣].

شهد العهد الروماني ميلاد السيد المسيح (عليه السلام)، حاول اليهود استغلال الحرية الدينية التي منحت لهم في القدس منذ عودتهم من السبى البابلي، وسعوا لإقامة دولة خاصة بهم، ولكن الحاكم الروماني، بمساعدة الأهالي العرب، شن هجومًا عليهم عام ٧١ ميلادية، واحتل القدس، وقُتل عدد كبير من اليهود، قبل فرار من بقي حيًّا منهم إلى سوريا، ومصر، والبلدان العربية المجاورة الأخرى، وفي عام ١٣٠ م بنى هدريان مدينة جديدة مكان القدس، أسماها (إيلياكابيتولينا)، وفي عام ١٣٥م، كانت هناك محاولة يهودية لإقامة دولة في فلسطين، قاد تلك المحاولة أحد حاخامات اليهود، وسميت تلك المحاولة ثورة (بركوخبا)، واحتل هادريان المنطقة اليهودية في القدس، وبنى مدينة جديدة حَرَّمَ على اليهود دخولها، لم يحدث اليهود منذ ذلك الوقت أي قلاقل حتى مجيء القرن العشرين[٤]. ذلك بعد ألفي عام منذ زوال دولتهم عام ٥٨٦ ق.م[٥].

في العهد البيزنطي

بعد اعتراف الملك قسطنطين الأكبر بالمسيحية دينًا رسميًّا، بنى كنيسة القيامة، عام ٣٢٤م، في القدس، وتشير خريطة مهمة، مستمدة من أطلس الإسلامي، إلى أن فلسطين كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام، وكانت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية في صدر الإسلام (من ٦٣٦ : ١٠٧٢م). دخل المسلمون القدس في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بالصلح مع أهلها، وتسلم الخليفة عمر مدينة القدس، أو إيلياء آنذاك، وتدفقت القبائل العربية إلى فلسطين، وأصبحت اللغة العربية هي السائدة[٦].

وحين دخل الأُمويون المدينة (٦٦١- ٧٥٠ م)، كانت قد اتخذت طابعًا إسلاميًّا خالصًا، ثم جاءها العباسيون (٧٥٠- ٨٧٨ م)، فشهدت نهضة علمية كبيرة، قبل أن تعيش المدينة حالة عدم استقرار بسبب الصراعات العسكرية التي نشبت بين العباسيين، والفاطميين، والقرامطة، وخضعت القدس لحكم السلاجقة، منذ عام ١٠٧١م[٧].

الغزو الصليبى للقدس عام ١٠٩٩ م

سقطت القدس، في أيدي الصليبيين، عام ١٠٩٩ م نتيجة الصراعات التي سبقت الإشارة إليها، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت القدس مملكة لاتينية، تحكم من قبل أحد الملوك الكاثوليك، الذي فرض الشعائر الكاثوليكية عنوة، ما أثار غضب المسيحيين الأرثوذكس [٨].

كانت هناك رغبة صليبية في إقامة مركز روحي، ديني ثقافي، في فلسطين، ما يوضح مدى الأهميه الدينية، والثقافية لتلك المدينة المقدسة لكل من ينظر إليها، من الغاصبين، والمحتلين، وكان الفاطميون قد أرسلوا ثلاث حملات رمزية، كان قوام الأولى ٦٠٠ جندي، عادوا قبل دخول القدس فعلًا، وفي الحملة الثانية، والثالثة، أرسلوا عددًا أكبر من الفرسان، والمقاتلين والتقوا بكتائب من الصليبيين عند مدينة الرملة، وانهزموا، وعادوا إلى مصر، وخرج عماد الدين زنكي، من الثقالبة، محاربًا، ومجاهدًا، واستشهد، أيضًا، وخرج منهم نور الدين محمود، محاربًا، وانتزع دمشق، والشام من الصليبيين، ثم سير جيشه إلى مصر، ليقيم وحدة إسلامية قوية، مرهوبة، وخرج من جيشه إلى مصر شاب كردي، هو صلاح الدين الأيوبي، الذى تأثر بكل هؤلاء القادة، وتقدم إلى بيت المقدس رغبة في تحريره من قبضة الغاصبين الصليبيين[٩].

بدأ صلاح الدين يجمع جيوشه، في ربيع عام ١١٨٧ م، وجعل مركز قيادته في دمشق، وعندما اكتمل بناء الجيش، في صيف ذاك العام، اتجه إلى طبرية، في ٤ يوليو/ تموز ١١٨٧ م، وجعلها وراء ظهره، ثم تقدم غرب طبرية، عند قرية حطين، بمجرد أن علم، بتجمع الصليبيين، واحتشادهم هناك، من جهة الغرب، في يوم شديد الحرارة، رابطت جيوش صلاح الدين بينهم وبين الماء، مما اضطر الجيش الصليبى إلى قضاء ليلة يئن من العطش والإنهاك، واستغل الأيوبي ذلك، وطوَّقهم في الليل وانتصر عليهم، وألحق هذا الانتصار بآخر في اليوم التالي، بعد محاولة يائسة من الصليبيين لبلوغ الماء، دارت معركة من أهم المعارك في التاريخ العربي، والإسلامي هي معركة حطين الشهيرة، التي انهزم فيها الصليبيون، وتجلت في تلك المعركة الحنكة العسكرية للقائد صلاح الدين، الذي لم يكن قد تقدم بعد إلى القدس، بل فضَّل أن يعزلها عن الإمدادات البحرية التي تأتي إلى الصليبيين من الخارج، ولتحقيق ذلك، اتجة إلى عكا، التي سقطت دون مقاومة، واتخذها مركزًا للقيادة، ومنها وجه جيوشه لفتح المدن العربية، فاستولى على الناصرة، وقيصارية، وحيفا، وصفورية، والعولة، والطور، بينما استولى أخوه العادل على حصن مجدلية، بين يافا ونابلس، ثم يافا، وسبسطية (السامرة القديمة)، وصيدا، وفي أوائل سبتمبر/ أيلول ١١٨٧م استسلمت عسقلان، ولم يبق أمام الأيوبي سوى معركته الرئيسية، التى أدار من أجلها كل هذه المعارك، وكانت القدس[١٠].

بعد أن رأى صلاح الدين رايات النصر تخفق له، بعد استسلام معظم المدن التي كان يحتلها الصليبيون دون مقاومه تذكر، سار إلى قلب فلسطين، وأخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون، وعندما تأكد من تأمين الساحل لمنع وصول الإمدادات البحرية إلى الصليبيين، في القدس، ضرب صلاح الدين الحصار عليها، وعرض على أهلها التسليم، بنفس شروط استسلام المدن التي استسلمت قبلها، أقسم الأيوبي على أن يأخذ القدس عنوة، فتلمس من أسوارها نقطة ضعف يهاجم من خلالها، وفي ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١١٨٧م، بدأ هجومه، من الشمال، عند باب العمود، ونصب المنجنيقات، ونظم الرماة، وفتح جنوده ثغرات في الأسوار، وبدأ التصادم الذي لم يدم أكثر من أسبوع، في أعقابه رأى المحاصرون أنه لا أمل لديهم في النجاة، فأسرعوا في طلب التفاوض، وشروط التسليم، ولم ينكِّل الأيوبي بأهل المدينة، مثلما فعل الصليبيون عندما استولوا عليها قبل ذلك بنحو قرن، وخاطبهم صلاح الدين قائلًا: «لا أفعل بكم كما فعلتم بأهل القدس حين ملكتموه سنة ٤٩١، من القتل، والسبي»، ودخل العرب القدس، بعد تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ـ ٢ أكتوبر/ تشرين أول ١١٨٧م، وجدَّد صلاح الدين أسوار بيت المقدس، وأنشأ عددًا من الأبراج العسكرية، في الجزء الواقع بين باب العمود، وباب الخليل، ذلك الجزء المواجه للطريق العسكري الآتي من الساحل الفلسطيني على البحر الأبيض المتوسط، من يافا، خصوصًا، وذلك لتدعيم التحصين ضد الصليبيين، وقام بحفر عدد من الخنادق حول أسوارها[١١].

نجح الأيوبي، في فك حصار القدس، في مواجهة أربعين ألف صليبي، وبعد أن استسلمت الحامية المصرية الصغيرة، التي كانت موجودة هناك[١٢].

لم يدم ذلك كثيرًا، لقد نجح الصليبيون في السيطرة على المدينة، بعد وفاة الأيوبي، في عهد فريدريك ملك صقلية، واستمر أثرها ١١ عامًا، إلى أن نجح الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٤م في استردادها نهائيًا[١٣]. كما

تعرضت القدس للغزو المغولي عام ١٢٤٣/ ١٢٤٤، لكنهم قوبلوا بمواجهات كبيرة من المماليك، تحت قيادة سيف الدين قطز، وأتم النصر الظاهر بيبرس في معركة «عين جالوت» عام ١٢٥٩م، وضمت فلسطين بما فيها القدس إلى المماليك[١٤].

القدس في أيدي العثمانيين

كان السلطان سليم الأول قد فتح القدس عام ١٥١٦م، بعد أن هزم المماليك في معركة مرج دابق، وقتل سلطانهم قانصوة الغوري، وانتهى بذلك الحكم المصري العربي المملوكي للمدينة[١٥]. وأصبحت القدس بعدها تابعة للإمبراطورية العثمانية، وأعاد السلطان سليمان القانوني بناء أسوار المدينة وقبه الصخرة[١٦].

في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ - ١٨٠٧م)، هاجم بونابرت العريش عام ١٧٩٩م، وخرج بجيشه متجهًا إلى صحراء سيناء، متخذًا الطريق الساحلي القديم قاصدًا فلسطين، فاستولى على العريش، وغزة، والرملة، ويافا، أما محمد علي فقد أرسل جيشًا، بقيادة ابنه إبراهيم باشا إلى فلسطين، والشام، ولم يلبث أن احتل بيت المقدس، ومعظم مدن فلسطين عام ١٨٣١، وكانت المفاجأة عندما واجهه أهلها بمقاومه شديدة، فقد أعلنوا ثورةً على إبراهيم باشا وجيشه، لكنه نجح في إخماد تلك الثورة، ثم سحب جيوشه إلى مصر، رضوخًا لضغوط بعض الدول الأوروبية، وفي ضوء الأوضاع التي فرضتها تلك الدول على محمد علي في معاهدة لندن ١٨٤٠م، ومن ثم عادت سلطة الدولة العثمانية على القدس (السلطان عبد المجيد) بموجب تلك المعاهدة عام ١٨٤١، بدعم من إنجلترا، والنمسا، وظلت تحت الحكم العثماني[١٧]. فأنشأت الدولة العثمانية عام ١٨٨٠ متصرفية القدس، كما أزيل الحائط القديم للمدينة عام ١٨٩٨م لتسهيل دخول القيصر الألماني وليام الثاني، وحاشيته أثناء زيارته للقدس، واستمرت المدينة المقدسة تحت الحكم العثماني حتى فقدت تركيا معظم ما كان تحت سيطرتها من بلدان، بما فيها القدس الشريف، التي احتلها الإنجليز في ٩/ ١٢/ ١٩١٧، بقياده السير إدموند اللنبي، ضمن مجريات أحداث الحرب العالمية الأولى[١٨].

الاحتلال البريطاني للقدس

بدأ الحكم العسكري في فلسطين بإصدار منشور في ٢٤/ ١٠/ ١٩١٧، الأمر الذي تبعه احتلال عدد من المدن الفلسطينية، ويافا، كان ذلك تمهيدًا للمهمة الأولى للحملة البريطانية التي كانت مهمتها احتلال القدس، وكانت القوات التركية قد انسحبت من المدينة في ٨/ ١٢/ ١٩١٧، وسلمت للبريطانيين في عام ٩/ ١٢/ ١٩١٧ ودخلها اللنبي رسميًا في ١١/ ١٢/ ١٩١٧، وفي اليوم نفسه، ومن قلعة صلاح الدين الأيوبي، أذاع منشور الأحكام العرفية في القدس الشريف، هكذا وقع الجزء الجنوبي من فلسطين، تلك الأقاليم الواقعة جنوب يافا، القدس، تحت الحكم العسكري، واستطاع جنرال «كلايتون»، مدير الإدارة العسكرية في فلسطين، آنذك، تنظيم هيئة عسكرية، تعمل تحت إدارته، وعين عسكريين في عدة مناطق، ومنها القدس بعد احتلالها في ٩/ ١٢/ ١٩١٧[١٩].

بعد وعد بلفور ١٩١٧م، ومع تزايد التسهيلات البريطانية للحركة الصهيونية من إجراءات تنظيمية، وأساليب مختلفة لنقل ملكية الأراضي للصندوق القومي اليهودي، ازدادت الهجرات اليهودية إلى فلسطين، الأمر الذي أجج أطماع الحركة الصهيونية وشد أزرها في مواجهة العرب، ما أدى إلى تفجر عدد من الهبات، والانتفاضات، والثورات

من جانب الفلسطينيين ضد الممارسات الصهيونية، وسياسة التهجير، فكانت القدس مركز هذه الثورات، التي استمرت من ١٩٢٠، وحتى ١٩٣٩، فقد حدثت في ٤/ ٤/ ١٩٢٠ انتفاضة مسلحة استمرت ٤ أيام، لكن الإنجليز قاموا بسحقها، واستشهد فيها ١٠ فلسطينيين، وكانت هذه الانتفاضة بداية الصدمات بين اليهود والعرب حول الأماكن المقدسة في القدس، الأمر الذي تكرر عام ١٩٢٦م[٢٠].

وفي ٢٣/ ٨/ ١٩٢٨ تزايدت الصدامات بين المستوطنين اليهود والشعب الفلسطيني، وقامت قوات الاحتلال البريطاني بالتصدي لهذه الصدامات، وإيقافها، الأمر الذي تكرر في العام التالي، واشتعلت الحركة الوطنية، آنذاك، ولم يستطع البريطانيون منع ذلك، كان ذلك بسبب الاستفزازات التي تسبب بها اليهودُ للمسلمين، في هبة البراق صيف ١٩٢٩، استمر الأمر أسبوعين، وانتهى باقتياد العرب إلى السجون والمعتقلات، وأصدرت محاكم الانتداب ٢٠ حكمًا بالإعدام بحق العرب، وتم إعدام صهيوني واحد، وأضحت القدس طول فترة الاحتلال البريطاني مركزًا لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، وإثر هبة ١٩٢٩ قررت حكومة الانتداب البريطاني تقسيم فلسطين إلى كانتونات، بعضها عربي، والآخر يهودي، لكن العرب قاوموا هذا المشروع، وأحبطو أغراضه، وتكررت الفكرة عقب ثورة ١٩٣٦، محاولة وضع القدس تحت نظام دولي، لمكانتها المقدسة، وفشل هذا المشروع أمام ثورة العرب عليه ومقاوماتهم له[٢١].

في صيف ١٩٣٧، عاد الفلسطينيون إلى حمل السلاح ضد البريطانيين، إثر صدور «تقرير لجنة بيل» الإنجليزية (٧/ ٧/ ١٩٣٧) التي اقترحت تمركز القيادة في القدس حيث مقر «اللجنة العربية العليا»(*) ، وفي خريف ١٩٣٧، أفلت معظم قادتها إلى خارج فلسطين، وسقط آلاف الشهداء، بينهم قادة عسكريون بارزون، إلى جانب إحكام الحصار البريطاني على المدينة[٢٢]. في أعقاب صدور الكتاب الأبيض (فبراير/ شباط ١٩٣٩م) أعادت المنظمات الصهيونية نشاطها للقدس مرة أخرى ضد العرب، والبريطانيين، وقامت بنسف عدد من الدور الحكومية، وأبرزها تدمير فندق الملك داود، الذي كان مقرًا لحكومة الانتداب، وقتلت فيه عددًا كبيرًا من المسؤولين البريطانيين[٢٣].

بقي الحديث عن احتلال إسرائيل للقدس، على جرعتين، سنة ١٩٤٨، و١٩٦٧.

* * *

(*) هي المؤسسة الجبهوية التي ضمت الأحزاب العربية الفلسطينية الستة (العربية/ الدفاع/ الاستقلال/ مؤتمر الشباب/ الإصلاح/ الكتلة الوطنية)، وذلك في ٢٥/ ٤/ ١٩٣٦، حتى تقود هذه الجبهه الثورة الوطنية، التي اندلعت قبل خمسة أيام، ودامت ٣ سنوات متصلة.

هوامش الفصل السادس:

(١) موسوعة المدن الفلسطينية، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، تونس،١٩٩٠، ص ٥٨٩.

(٢) بهاء فاروق، **فلسطين بالخرائط والوثائق**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٢.

(٣) عبد الحميد الكاتب، **القدس**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٤) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢ ،٥٣.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٨، ٥٩.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٥٥.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٣.

(٨) **المصدر نفسه**، الصفحات ذاتها.

(٩) الكاتب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩، ١٠٠.

(١٠) سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٨٣، ١٩٠.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٩١، ١٩٣.

(١٢) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٨، ٥٩.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١٤٤.

(١٤) **المصدر نفسه**، الصفحات ذاتها.

(١٥) **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٧.

(١٦) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٤.

(١٧) راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢.

(١٨) فاروق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٤.

(١٩) د.كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني (١٩٢٢-١٩٣٩)**، ط٢، طرابلس الغرب، ١٩٨٢، ص ٦٤، ٦٥.

(٢٠) هالة منصور، المقاومة الوطنية في القدس، **صامد الاقتصادي** (عمان)، العدد (١١٠)، تشرين الأول (أكتوبر) ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢١) سمير جريس، **القدس/ المخططات الصهيونية الاحتلال والتهويد**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٧.

(٢٢) منصور، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٠.

(٢٣) جريس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠، ٣٢.